اجتمع في بيروت ، خلال البرهة القريبة الماضية ، مؤتمر جمع مؤمنين بالرابطة القومية التي تجعل من الناس أمة وفق اعتقادهم ، ومؤمنين بالرابطة الإسلامية التي تجعل من الناس أمة وفق اعتقادهم . وفي فلسطين التأمّت القوى الشعبية بمختلف ألوانها في الانتفاضة ، دون تردد ودون جدل ودون نظريات ، لتلحق بانطلاقة الانتفاضة وتأخذ دورها في قيادة الجماهير . لقد عاد الشعور بالوحدة يملأ القلوب لأن الجميع أدركوا أنهم مستهدفون في مصالحهم وفي كراماتهم وفي شهامتهم وفي حرصهم على العيش في عالم لم يتجرد من الحق والعدل ، وأدركوا كذلك أن لا أحد مستثنى من المصير الوبيل الذي يندب به الاستمرار على الحال الراهن ، وهو الإدراك نفسه الذي تبلور في ضمير عامة الناس وخاصتهم في أقطار الأمة على اتساعها .

هل كانت القيادات الفكرية والتنظيمية في بلادنا محتاجة إلى مرور هذا الوقت كله ، لكي تقتصد في مشاداتها العقيدية والسياسية ، أو في منازعاتها التنافسية ، وتدخل في حالة صميمية من الحوار والتفاهم وتأجيل الاختلاف ، على غرار ما يحدث الآن ، بفضل النية القوية المسبقة التي أضمرت ضرورة الصف الواحد والخندق الواحد ؟

أما كان في ما سبق من مأس ونكبات دافع مشابه لهذه الصفوف التي تراصت ، وهذه الهتافات التي تعالت ، وهذه الشعارات التي رفعت وأعلنت وحدة الأمة في نظرتها ، وفي نيتها ، وفي عزميتها ؟ أما كان ينبغي أن تظل الأمة - حين غضبت لنكبة فلسطين أول مرة - على هذا الحال من الغضب ، حتى ينشئ الغضب مملكة الصحو وتطهير البيت وفتح الطريق السالك نحو المستقبل ؟

ها نحن نشهد في العواصم العربية التوافق التلقائي الذي لم يتعمده أحد ، في ميقات نزول الجماهير إلى الشارع ، وفي أسلوب تعبيرها عن غضبتها ، وفي نصوص الشعارات المكتوبة على لافتاتها ، وهي المشاهد المفترقة منذ زمان عبد الناصر . فنقول في فرحة : الأمة الواحدة تعلن عن وجودها من جديد .. كأنما وصلنا من قبل إلى حال تساعل فيه كل إنسان : هل ظلت الأمة واحدة حقا ؟ هل هي حية أم ميتة ؟

والأمة واحدة وموجودة . ولكنها مكبلة .

عقد عدم اعتداء

وما يكبل الأمة ليس عاملا خارجيا ، بل داخلي ذاتي . وهو ليس حتميا ، بل ناجم عن افتقاد الحد الأدنى من (تقدير الموقف الكلي) . ولا شك أن لفظ الأمة يشمل الحكام والأنظمة كما يشمل الشعوب والمواطنين العاديين . وأول ما ينبغي تقديره والتوصل إلى إجابة عنه هو السؤال التالي : هل يمكن أن تتعايش الأنظمة مع شعوبها في وضع يتيح لكل منهما أن يؤدي دوره في القضايا التي تهم الجميع دون أن يخشى انقلابه عليه ؟ ذلك أن العلاقة بين الحكام والشعوب في بلادنا نموذج صارخ للشك والتربص الذي يتفاقم ويتضاعف بدلا من أن يتراجع ويتضاءل . وأهم سبب لذلك من ناحية الحكام ترسبات ماضية عن محاولات انقلابات لم تنجح . وأهم سبب من ناحية الشعوب ضيقها وتذمرها من إيثار الحكام السلامة وانضوائهم تحت إرادة الأجانب الذين لم يكتفوا بنهب خيرات الأمة ، بل ظاهروا على احتلال أوطانها وذبح أطفالها والاستهتار بعقلها وكرامتها . ولو تصورنا نظريا أنه أمكن التوصل إلى نوع من العقد المؤقت لمدة عشر سنوات ، بين قادة الأنظمة وقادة القوى الشعبية والمعارضة (سواء سرية أو علنية) ، يتضمن تعهد قادة القوى الشعبية بالامتناع عن العمل لإسقاط النظام ، في مقابل تعهد قادة الأنظمة بالامتناع عن أخذ الناس بالشبهات وقمع أنشطتهم ، ألا يؤدي ذلك إلى وضع أفضل بالنسبة للجميع ؟

نعرف أن مثل هذا الافتراض يمكن أن يقال إنه غير واقعي . وربما غير عملي . وربما كان شكله ساذجا . وإنما دعونا إلى افتراضه لنقول إن التناقض بين الحكام والشعوب في بلادنا يمكن التخفيف من حدته ، كي لا تطغى المعركة الأهلية على المعركة مع الأجنبي في هذا التوقيت الحرج . والملاحظ أن الأمور في بلادنا بلغت مرحلة يصعب أن نتصور فيها أن حاكما عربيا أو مسلما مرتاح ومقتنع بمسايرته طغيان الأجانب وإمعانهم في الظلم وغطرسة سياساتهم وأساليبهم . فهو يود أن يستقوي بشعبه وأن يكسب الرأي العام في بلاده ، ولكنه يخاف الجماهير ويحذر المعارضين . ومن ناحية أخرى فإن أكره ما يكرهه الناس في كثير من الأنظمة

ليس تفرد الحاكم بالحكم ، وليس اغتنام المنصب لاكتناز المال ، بل وضع مقدرات البلاد و ثرواتها تحت تصرف الأجانب وفي مصارف الأجانب ، وإطاعتهم في ما يأمرون ، والتغاضي عن كيدهم وعن دوسهم على كرامة الأمة ، بحجة أنهم أقوىاء ، ولا قبل لنا بالتصدي لآلاتهم الحربية ومكائدهم الاستخبارية . والناس يحسون أن هذا المنطق يشتمل على تسليم بقياس استاتيكي (جامد) زائف يجزم بتفوق الخصم ، دون أن يخطر لأصحاب هذا المنطق الاعتماد على قوى من الممكن إدخالها إلى حومة الصراع ، سواء قوى الجماهير المحلية المنظمة ، أو قوى الدول الأخرى الشقيقة ، ودون أن تنفتح العقول على أساليب جديدة في السياسة والحكم ، من أجل محاولة الاعتناق من موقف الإدعان المهين المرفوض على كل صعيد .

ولا يجهل أحد أن جماهير المنطقة مشبعة بمشاعر الغضب المتراكم منذ عرفت طبيعة الأطماع والنهب والمصالح والأساليب التي يتبعها الأجانب في البلاد . وتبلغ تلك المشاعر درجة من الانتهاج تدفع الناس بقوة ، والشبان خاصة ، إلى بذل أية تضحية لمواجهة هذا التحدي الذي فرض على الجميع فرضا . ونحن لا ندعو هنا إلى جعل الوطن العربي ميدانا لجبهات حروب أو صراعات مسلحة بالضرورة . بل نتحدث عموما عن موقف المواجهة الذي يتناسب مع الإمكانيات والمعطيات الكبرى التي تملكها الأمة ، ونتحدث عن الوزن الذي تشكله الجماهير في الشارع في ذلك الصراع . ومع حفظ الفارق يجب القول إن تجربة حزب الله في لبنان قدمت شاهدا جديدا يضاف إلى تراث من الشواهد لدى الأمة بأن (الحجر في مكانه قطار) كما يقول المثل الشعبي . وقدمت - وهذا هو بيت القصيد هنا - شاهدا نظيفا على العقد الذي قام وما زال قائما بين الحكومة اللبنانية والحزب منذ عشرين سنة . فلا الحزب خطر بباله أن ينقلب على الحكومة ، ولا الحكومة لاحفته وحشرت رجاله في السجون . هذا على الرغم من أن الحزب كان مدججا بالسلاح ، وأن الحكومة تملك سجونا وأجهزة أمنية شأن غيرها . وكذلك على الرغم من أن الإسرائيليين والأمريكيين لم يتوقفوا عن توجيه الإنذارات إلى الحكومات اللبنانية المتعاقبة ، بأن عليها أن توقف المقاومة وإلا تعرضت للعقاب . وأحيانا تعدى الأمر الإنذارات إلى الضربات الموجهة . ولكن العقد الضمني القائم بين الطرفين ظل قائما ومحترما ، حتى خرج الجميع برووس مرفوعة حتى الآن .

نزيف الأمة

والمطلب الثاني في تقدير الموقف الكلي هو مراجعة ملف المنازعات العربية التي شغلت الساحة العربية واستنزفت معنويات الأمة على امتداد أراضيها في آسيا وأفريقيا طوال خمسة وعشرين عاما ماضية . فكل دولة عربية أو إسلامية اشتبكت في حرب مع جارتها العربية أو الإسلامية ؛ فاشتبكت المغرب مع الجزائر وشملت الحرب موريتانيا ؛ واشتبكت تونس مع ليبيا ؛ واشتبكت ليبيا مع السودان ومع مصر ومع تشاد ؛ واشتبكت مصر مع السودان ؛ واشتبكت السودان مع اريتريا ومع اثيوبيا ؛ واشتبكت اليمن مع اريتريا ؛ واشتبكت السعودية مع اليمن ؛ واشتبكت اليمن الجنوبي مع اليمن الشمالي ؛ واشتبكت قطر مع السعودية ؛ واشتبكت البحرين مع قطر ؛ واشتبكت الإمارات مع عمان ؛ واشتبكت إيران مع الإمارات واشتبكت مع أفغانستان ؛ واشتبكت العراق مع إيران ؛ واشتبكت الأردن مع سوريا .!!! وإذا كانت المدة التي استغرقتها الحرب ، وحجم القوات المنغسة فيها، ودرجة ضراوة القتال ، ومبلغ الخسائر التي تكبدها الطرفان ، تختلف من اشتباك إلى آخر ، فإن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن مجرد نشوب الحرب بين الجيران الأشقاء يعني أن العلاقات بين الحاكمين اتسمت بالعداء المرير ، وأن الحروب التي نشبت تركت الجو أكثر تسما من ذي قبل وباتت كلمة الوحدة العربية بعيدة كأنها من أشباح الماضي ، غريبة على الأسماع كأنها صدى هتاف في صحراء خالية .

فالدول أيضاً بحاجة الى موثيق عدم اعتداء بعضها على بعض . وذلك قبل أن تكون مؤهلة لتفعيل ميثاق الدفاع العربي المشترك !

ولم يتوقف نزيف الأمة عند حد اشتباك كل دولة مع جارتها . فلقد اندلعت الفتن الطائفية والصراعات الأهلية داخل معظم الأقطار والبيئات . وأدى ذلك إلى عداوات طاحنة وثارات مشؤومة . وصار ذلك شغلا شاغلا للأظمة، ونزيفا متواصلا لمعنويات الشعوب . وصارت الوحدة الوطنية في العديد من بلداننا شعارا تظاهريا مفرغا من مضمونه الحقيقي .

من الغريب أن أحدا لم يقف ليقول : أحقا هنالك من الأسباب ما يستأهل انخراط الدول الشقيقة بقواتها

المسلحة (وبطيرانها أحيانا) بعضها ضد بعض ؟ ألم يكن ممكنا تأجيل تلك المصادمات وإطفاء تلك الحرائق وتسوية أسباب الخلافات ، سواء أكانت خلافات بيوتات حاكمة أو حدود أو مياه أو ثروات نفطية أو أي شيء ؟ أين كانت جامعة الدول العربية ؟ أين كان العقلاء المتنفذون ؟ أين كان المثقفون الوجدويون ؟ أما كان أحمد شوقي أمير الشعراء محلا سياسيا جريئا، حين صرخ :

إلام الخلف بينكمو إلاما ؟ وهذي الضجة الكبرى علاما !؟

وفيم يكيد بعضكمو لبعض ؟ وتبدون العداوة والخصاما ؟

شهيد الحق قم تره يتيما بأرض ضيعت فيها اليتامى

أصنام القطرية

قد تكون هذه الحروب والصدامات والانشقاقات توقفت ، ولكن ذبولها وعقابيلها أحدثت آثارا ومضاعفات مستمرة يصعب تقدير الخسائر الناجمة عنها . ولعل العزاء الوحيد أمام هذه الحقيقة هو أن شعوب الأمة ، أي الناس العاديين فيها لم يحملوا في نفوسهم ضغنا بعضهم لبعض ، ولا صدقوا أن الأمة متضاربة الأهداف مختلفة المصالح . ويقيننا إنهم لم يكونوا يحفلون بأمطار أو بكيلومترات تضم إلى دولتهم أو إلى الدولة الشقيقة المجاورة التي تدور حرب دولتهم معها ، ولكنهم حينما شاهدوا شارون يداهم الأمطار المقدسة التي هي ساحة الأقصى ، بهدف تدنيسها وتحدي عقيدة أهلها ، لم يعودوا قادرين على تمالك أنفسهم ، ولم تعد للحياة نفسها قيمة .

وإيمان أفراد الأمة بضرورة النضال مع إخوانهم العرب أهل فلسطين وضرورة الدفاع عن الأقصى ، بهذه الأشكال التي شاهدها في مظاهرات العواصم ، هو تعبير عن وحدة النضال ويحمل المضامين التي نسيها الكثيرون . فهي - أولا - دليل على روح الوحدة وقوة الإحساس بها على الرغم من أصنام الكيانات القطرية التي نصبها أصحابها للعبادة ، وهي - ثانيا - دليل على تبخر الدعايات السوداء التي تخصص رجال السفارات الأجنبية في إشاعتها لحمل الناس في البلاد العربية على كره الفلسطينيين والقضية الفلسطينية ، وهي - ثالثا - دليل على أن قيم الحق والعدل والبسالة والاستشهاد والصبر والصمود ما زالت تحظى بولاء الأجيال الشابة وترتفع إلى مرتبة القداسة .

على أن هذه القوة الشعبية التي برزت بهذا الزخم عبارة عن طاقة خام ينبغي أن لا تضيع في الفراغ ، وهي تحتاج إلى التنظيم والتأطير لتؤدي دورها في المهام المختلفة التي تحقق للأمة ما ينقصها من القوة . فالجماهير تفتقد القيادات الشابة التي تصلح قدوة وموجها . وعلى القادة الذين ملكوا تجربة الماضي الخصبة أن لا يظنوا بخبرتهم على الأجيال الجديدة .

ومن المؤكد أن الدول العربية شبعت من حروب الإخوة الأعداء . وأنها بعدما أبدى الشارع استمساكه بالرابطة القومية وعبر بقوة عن إدراكه لوحدة المصير ، سوف تجد أن ما يجمعها وشقيقتها اللدود أكثر مما يجمعها مع الأجنبي .

ثمار انتفاضة الأقصى

ولا بد أن نشير أخيرا إلى حصة الأحزاب والمنظمات والجهات والنقابات وسائر التشكيلات التنظيمية الشعبية في أمتنا مما دعوناها (تقدير الموقف الكلي) . فالمطلوب منها أن تدرس تجربتها السابقة وتستخلص منها عوامل النجاح والفشل . وما من تنظيم إلا وهو ينحى باللائمة ويستخدم قارص القول في نقد الحكام . أما في رؤية تجربته الخاصة على حقيقتها دون انحياز فقلما يتحدث أحد بالموضوعية اللازمة . و حقيقة الأمر أن إخفاقات المنظمات قد لا تقل كثيراً عن فشل الأنظمة وأحسب أن جميع التنظيمات مطالبة بأطروحات أصيلة غير منسوخة عن الأيدولوجيات الخاصة بالمجتمعات الأخرى . ولكي نوضح ذلك بالمثال نقول إن جميع التنظيمات العربية اليوم تتبنى الديمقراطية . فما هي هذه الديمقراطية ؟ وما مقوماتها؟ وما الآليات التي تحققها ؟ وما مشكلاتها بالتجربة ؟ وكيف يمكن تلافياها؟

والجميع مطالبون بجعل برامجهم أكثر وضوحا وتفصيلا وعقلانية ، وبتوجيه اهتمام أكبر نحو التربية الأخلاقية للأعضاء . فقد حدث على مر نصف القرن الأخير أن وصلت معظم التنظيمات المعروفة في بلادنا إلى الحكم أو إلى الإمساك بنصيب من سلطة . ورأيهاا تختلف وهي في السلطة اختلافا بينا عنها حين كانت أحزابا مناضلة . كما رأينا البعض يلقي نفسه في أحضان القوى المعادية التي قاومها سابقا ، ويقوم بممارسات تناقض مبادئه على طول الخط . فالعلة ليست في الحكام والطبقات الحاكمة وحسب .

ينهض الشبان عادة بدوافع بالغة النبيل ولأهداف كبيرة كالتحرير وتحقيق العدل والضرب على أيدي الطغاة . ويتعهدهم الأكبر سنا وأوسع تجربة بصقل شخصياتهم وتركيز مفاهيمهم . ففي بوتقة التنظيم يمكن أن تنمو الدوافع النبيلة أو تتحول إلى ثرثرة وتجارة وانتكاس . ويستطيع أصحاب الهمم والمقاصد الكبيرة في طول البلاد العربية وعرضها أن يعثروا في الشارع على دماء جديدة أظهرت انتماءها لبلادها ولأمتها ، وبرهنت على استعداد للمبادرة . وهذه بمجموعها فرصة ثمينة لمن يبحث عنها .

إنها بعض ثمار انتفاضة الأقصى . فقد كان الدم الفلسطيني محرك الجموع . وكانت وقفة المصلين في المسجد الأقصى في وجه شارون وحراسه الثلاثة آلاف إلهاما للشبيبة الفلسطينية . وكانت أفعال الشبيبة الفلسطينية إلهاما لهبة الأقصى من المحيط إلى اندونيسيا . ولن ننسى العرب والمسلمين في المهاجر والمغتربات . لقد انبعثوا بدورهم انبعاثا غير منتظر ، وظهروا قوة سيكون لها شأنها في الميزان المختلف الذي سيشهده العالم ..